كرامة البلاد تتطلب موقفًا حاسمًا

تعبت وزارة الوفد كثيرًا مع الإنجليز فى سنتى 1950 و1951، فهى قد مدَّت لهم فى حبل المحادثات إلى أبعد مدى مستطاع لتقيم للعالم الدليل على حسن نيتها وسوء نيتهم، وكان خصوم الوزارة يشهرون بها ويزعمون أنها لا تجرؤ على إغضابهم.. فلما ملَّت وزارة الوفد من مماحكة الإنجليز وأيقنت أنهم يعبثون وأنهم لا يريدون جلاء ولا يقرون بوحدة قطعت الحبل وعرضت الأمر على ممثلى البلاد فأقرها البرلمان على إلغاء المعاهدة، وتحديد نظام الحكم فى السودان فى حدود الوحدة، وتلا ذلك انسحاب العمال من المعسكرات فتلقتهم الحكومة بالعون والترحاب، فثارت أعصاب الإنجليز فى مصر ولندن، وتوالت الحوادث تباعًا ولكن مصر شعرت لأول مرة بالكرامة والعزة وبرزت شخصيتها بين أمم العالم، ولا ينكر ذلك إلا مكابر.

وفيما مصر تجاهد وتكافح وإذا بالنيران تندلع فى عاصمة القطر فلا تبقى ولا تذر.

ثم أعفيت وزارة الوفد من الحكم ووليه رفعة ماهر باشا، وبالرغم من ارتياح الرأى العام للبرنامج الذى حدَّده لوزارته وإيمان الناس بأنَّه لن يلين مع الإنجليز ولن يطيل الأخذ والرد معهم.. فإنَّ شعورًا دفينًا كان يسرى فى النفوس، فيه مزيج من الأسف والمرارة للعودة إلى المحادثة أو المفاوضة، ولكن كان يسرى عن النفوس الاعتقاد أو الإحساس بأنَّ الإنجليز لابد قد أفادوا من دروس الحوادث الأخيرة وعبرها، وآمنوا بأنَّ البقاء على القنال أصبح الأمر المحلل، وأنَّ محاولة إرضاء المصريين بأقل من أهدافهم القومية مطلب بعيد المنال.

لكن على ماهر باشا استقال من الحكم وتولت الوزارة الحالية مقاليد الأمور، وأعلن دولة رئيسها تمسكه بأهداف البلاد وعكف على القضية يدرسها من ألفها إلى يائها وعلى الوثائق يستخرج ما فى بطونها من عهد ملنر إلى الآن، ثم عقدت اجتماعات ودارت محادثات، وسمع أنَّ دولة رئيس الوزراء يطلب بيانًا من الجانب البريطانى بالتسليم بالأهداف القومية كشرط للدخول فى المفاوضات، وتطورت الظروف وسمعنا أنَّ الأحاديث تدور للاستطلاع ثم انتقل الميدان إلى لندن، وأخيرًا عاد إلى العاصمة كما كان.

ومن عجب أنَّ تلك التصريحات التى كنا نسمعها وقت أحداث القنال، وذلك الانزعاج الذى بدا على المستعمرين وجعلهم يتحدثون عن قبرص وغيرها مستقرًا لقواتهم قد انمحى وزال.

ومن عجب كذلك أن ينساب في هذا الوقت الذى يعود فيه سعادة السفير البريطانى من لندن سيل من التصريحات تردد بعضه الصحف الإنجليزية وبعضه يردده الساسة وكلها تدور بعيدًا عن أهداف مصر القومية، فالجلاء مربوط بنوعٍ من الدفاع والسودان لا يمكن التساهل فى شأنه بأى حالٍ ويطلب الإنجليز مع هذا وإلى جانبه أن تبقى مصر الباب مفتوحًا.

ولست أدرى ما الذى يحمل مصر فى نظرهم على قبول هذا الوضع لحظة من ليل أو ساعة من نهار.

إنَّه لم يبق على دولة رئيس الوزراء إلا أن يحسم الأمر معهم نهائيًا لتعود البلاد إلي ما بدأته من قبل.

وليسمح لى دولة رئيس الوزراء أن أتوجه إليه بالنصح الخالص لوجه الله والوطن ألا يلجأ إلى المحافل الدولية - إن صح ما نقلته عن ذلك العزم الأنباء فيكفى أننا جربناها فلم نجد عند القوم إنصافًا ولا عدلًا. ولعلَّ دولته يسمح لى بأن أقول فى صراحة إننى أخشى إن فعلنا أن نورط أنفسنا. إننا قد ألغينا المعاهدة من

جانبنا ولم نعبأ بأحد، فاتخذنا هذه السياسة لنا وارتضيناها لأنفسنا واحتملنا تبعاتها ونتائجها. فالرجوع إلى المحافل الدولية بعد ذلك فيه إضعاف لمركزنا أو شعور بأننا لم نكن على كامل الحق فيما فعلنا.

والإنجليز على ما يذكر دولة رئيس الوزراء سبق لهم أن هددوا عقب إلغاء المعاهدة بعرض الأمر على مجلس الأمن بحجة أنَّ مصر انفردت باتخاذ هذا الإجراء لكنَّ أحداث القنال شغلتهم وإننى لأخشى أن نتيح لهم الفرصة بأنفسنا. ووسط هيئة الأمم غير مأمون والالتجاء إليه محفوف بالمجازفة والخطر. ولعلَّ أقرب الأدلة وأقواها أنَّ أحدًا لم يحرك ساكنًا لإنصافنا والأحوال فى مصر على أشدها والكرب يخيم على جو البلاد.

وقد جاءت حوادث الشهور الثلاثة الأخيرة مؤيدة لسياسة القطع دون سياسة الوصل وتحقق أنَّ القوم مستعمرون غلاة. وأن لا سبيل إلى إقناعهم بمنطقٍ ولا بعدلٍ ولا بقانونٍ.

فحذار من الالتجاء إلى المحافل الدولية اعتبارًا بما كان، وتجنيبًا للبلاد مما يترتب على الفشل - وهو محقق - من خيبة الأمل فتخور العزائم ونحن أحوج ما نكون لشحذ الهمم واستقبال ألوان جديدة من المكاره والمتاعب.

ولعلَّ الأوان يكون قد آن لتعود مصر إلى الاعتماد على نفسها، وعليها وحدها ولعلَّنا جميعًا وفديين وغير وفديين نكون قد أفدنا من عبر الماضى القريب، وآمنا بأنَّ الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم.

والله يهدينا جميعًا إلى سواء السبيل ويزيل ما فى قلوبنا من غلٍ إنَّه نعم المولى ونعم الوكيل.